تعريف بالكتاب

نصف فلسفة هربرت سبنسر تفهمه من ترجمته التى كتبها بقلمه وقد جاوز الستين وخطر له أنه ينحدر الى الموت ، ولكنه عاش بعد ذلك نحو عشرين سنة بتلك القوة الحيوية التى ورثها من آبائه وأجداده ، وأكثرها من قبيل الوراثة النفسية التى تظهر فى الأخلاق أشد من ظهورها فى تركيب الجثمان .

فقد كانت الجرأة على المخالفة سمة معروفة بين أسلافه من جهة أمه ومن جهة أبيه ، وكان منهم البوهيمى الذى فارق بلاده لاصراره على معتقده ، والفرنسى الذى صمد للاضطهاد الدينى فى وطنه ، وكان هو نفسه فى طفولته يقدم على عصيان والديه ويتعرض لغضب أمه وتأنيب أبيه من جراء استقلاله برأيه وسلوكه ، فلم يكن من المستغرب بعد ذلك أن ينشأ وليد هذه الأسرة داعية من أكبر دعاة الحرية الشخصية ، أو دعاة مذهب « الفردية » المتطرفة فى الحياة الاجتماعية وحياة التفكير والفلسفة ، وأن تكون هذه « الفردية » المتطرفة هى التى باعدت بينه وبين اتباع المذاهب العامة التى غلبت على العالم الأوربى بعد وفاته فى السنوات الأولى من هذا القرن العشرين ، وتستوى فى ذلك مذاهب الشمال ومذاهب اليمين .

فمذاهب الشمال من الشيوعية الماركسية الى ما دونها تقوم على الغاء استقلال الفرد فى سبيل المجموع .

ومذاهب اليمين من الدكتاتورية الفاشية الى ما دونها تقوم كذلك على الغاء استقلال الفرد فى طاعة الزعيم المقدس ، سواء أكانت قداسته من الدين أم من فلسفة السلطة المطلقة على اختلاف دعاويها .

وبين أقصى الشمالَ وأقصى اليمين فى الوسط المعتدل تقوم السلطة الدستورية أحيانا على تفويض الحكومة فى شئون التخطيط والدفاع ، بحسب الظروف التى يدعو اليها التعاون مع الحكومات الأخرى .

وليس هذا بالجو الذى تروج فيه فلسفة هربرت سبنسر التى أجملها فى كتاب الانسان والدولة وكتاب التربية ، وفصلها فى سائر بحوثه الاجتماعية .

وهذا ـ فيما نرى ـ هو علة خموله فى بيئات السياسة والصحافة السياسية وما يتصل بها من وسائل النشر والثقافة العامة ، ولكنه لم يخمل قط فى بيئات التفكير وبيئات الدراسة على الاجمال ، ولم يكن « سليما » فى معترك الخصومات الى الحد الذى أشار اليه الأستاذ بوخلر فى الحوار التالى حيث يقول على سبيل الظن والاحتمال : « أن مشكلة سبنسر لم تكن فى توثيق رابطته بعلوم عصره ، بل فى أنه ـ فى الأحكام العامة التى خلص اليها فى هذا العلم ـ يغلو فى الاحتياط والتزام السلامة فى مصطلحاته وآرائه ومدركاته ، ويتجنب الآراء الجريئة التى تصدم الناس » وهم كما قال الأستاذ بريزون فى جوابه له : « لا يحبون الفلاسفة الذين يؤثرون السلامة » .

كلا ... ان الناس ـ كما قال الأستاذان بوخلر وبريزون ـ يلتفتون الى جانب الجرأة ولا يلتفتون طويلا الى جانب الحذر ، ولكن هربرت سبنسر لم يكن بعيدا عن الجرأة الى الحد الذى يوصف بالسلامة المفرطة ، لأن له نقادا غير قليلين يأخذون عليه الجرأة على التعميم الواسع الذى يشمل الأكوان كلها ويشمل معها تاريخ الانسان فى جميع عصوره ، ويحسبون أن الاعراض عن فلسفته انما كان اعراضا عن هذا التعميم الواسع على نحو لا يستريح اليه العقل الانجليزى وهو مطبوع على ايثار « الحيطة » والتحفظ فى تطبيق القضايا الفكرية ، وبخاصة ما كان منها مرتبطا بالحياة العملية فى مسائل السياسة والاجتماع .

ففى آراء هربرت سبنسر من الجرأة فوق ما فيها من الحذر

والحيطة ، وانما كان الاعراض عن هذه الآراء نتيجة معقولة من نتائج الضجة الشائعة حول الدعوات العامة من طرفى الشمال واليمين ، ولم يعرض الباحثون قط عن هذه الفلسفة حيث يرجع الأمر الى دراسة الواقع أو دراسة التاريخ ، كلما تجدد الكلام على « نظريات » التطور ونظريات التقدم والارتقاء .

يقول الأستاذ بريزون : « أما الآن فقد اختفت كتب سبنسر من السوق تقريبا ، وفى كتاب تاريخ الفلسفة الذى نشر منذ أمد قريب لمؤلفه برتراند رسل ... لم يرد ذكر هربرت سبنسر على الاطلاق » .

وما قاله الأستاذ بريزون صحيح أيضا اذا أريد باختفاء الكتب أنها اختفت من سوق الطبعات الدارجة بين أيدى جمهور القراء ، ولكن هذه الكتب لا تختفى فى طبعة من الطبعات المخصصة للدراسة والمراجعة ، وان كان منها ما ينشر ملخصا ، ومنها ما ينشر على أجزاء متفرقات .

وربما كان اهمال برتراند رسل لفلسفة سبنسر راجعا الى اعتبارها من دراسات العلوم التى لا تحسب فى عداد التأملات الفلسفية ، وذلك خطأ من برتراند رسل قد يكون له عذر واحد فيه ، وهو أن رسل حجة فى البحث العلمى وليس بحجة فى مباحث الفلسفة ، لأنه ـ على الأكثر ـ عالم رياضى وليس بفيلسوف .

أما المراجع الفلسفية المعتمدة ـ مهما يبلغ من اختصارها ـ فانها تذكر سبنسر وتوفيه حقه بين فلاسفة عصره ، ونحن نفتح معجم الفلسفة الصغير الذى أشرف على تأليفه دجبورت رونس Runes فنرى فيه هذا التعريف المنصف للفيلسوف مع أجماله ؛ اذ يقول كاتب الفقرة لستر دينون Denonn : « هو الفيلسوف الانجليزى العظيم الذى وقف حياة كاملة لتقرير نظام يقوم على اعتبار فكرة التطور من المبادىء الأولى فى كل ناحية من نواحى التفكير الانسانى ، وقد كان سابقا لداروين بفكرته المشهورة عن كل تطور وتفسيرها بأنها انتقال من التشابه الى التنوع ومن البساطة الى التركيب ، ولكنه قد تأثر

بالنظريات الداروينية واستخدم براهينها فى عمله الضخم الذى شمل مذاهب علوم الحياة وعلم النفس والاجتماع والأخلاق ، وقد كانت وجهته أن يفسر الحياة والعقل والأطوار الاجتماعية بمقاييس المادة والحركة والطاقة ، وكان يبدى فى السياسة من مبدأ حياته نزعة شديدة الى الفردية » .

على أن قراء سبنسر ممن أدركوا شهرته العالمية المستفيضة فى أوائل القرن العشرين يحق لهم اذا قابلوا بينها وبين مكانته المقصورة على دوائر البحث والدراسة أن يحسبوا هذه المكانة ضربا من الخمول بالقياس الى ذلك الصيت الواسع فى الديار الشرقية على الخصوص من بلاد الشمس المشرقة فى اليابان الى بلادنا العربيـــة وسائر بلاد الشرق الأوسط غير العربية ، ومنها تركيا وايران .

لقد كنا نسمع باسمه فى السنوات العشر الأولى من القرن العشرين كما نسمع بأسماء ديكنز وبيرون وتنيسون وكارليل ، وكانت كتبه فى التربية والسياسة تترجم وتنشر بين المتعلمين وكانت المجلات العلمية تلخص كتبه المطولة وتعقب عليها تعقيب الاعجاب والاكبار ، وكنا نكتب مقدمات الدواوين الشعرية فنستشهد بكلام سبنسر فى الموســـيقى والأوزان ، ونكتب عن الفكاهة فنستشهد برأى سبنسر فى أســـباب الضحك الفزيولوچية ، ونمقت الاستبداد فنذكر مثله الذى يقول فيه ان التحكم مرفوض مكروه ولو لم يكن فيه ضرر بالمحكومين . فلو أن ملكا مستبدا أصدر أمره الى رعاياه أن يحرك كل منهم رأسه خمس مرات فى النهار لما كانت فى ذلك خسارة عليهم ، ولكن الخسارة الكبرى أن تكون فى يد الملك تلك السلطة التى يقدر بها عـلى الســـيطرة لغير نفع ولا خسارة .

بل كنا نحب سيرته ونتتبع أخباره الخاصة فى حياته المنزلية ، ومنها أنه كان يفصل ملابسه على مثال غير المثال الشائع بين الأوربيين ، ويختار لأثاث بيته نماذج من رسمه وتركيبه ، لأنه كان ينعى على الانســـان

التمدن أنه يتوارث كساءه وآنية بيته كما كانت على أيام الصناعات اليدوية القاصرة ولا ينظر فى التوفيق بينها وبين لوازمه الحاضرة بما يستطيعه بعد تقدم الصناعة وتقدم العلم بمطالب الصحة ، وكنا نسمع أنه أبى أن يلقى قيصر روسيا الذى رغب فى لقائه لأنه يكره التقيد بالرسميات ومنها لبس الردنجوت ، وأنه عزف عن المجتمعات وتعود أن يضع فى أذنيه سدادتين تحجبان السمع لكيلا يستمع الى شىء فى المحافل العامة التى تضطره واجبات الأسرة الى شهودها .

فكانت مطالعتنا لفلسفته أشبه بالعلاقة الشخصية التى تجاوزت الرغبة فى الفهم الى التعاطف بالشعور ، ولم يكن هذا شأننا وحدنا فى بلادنا العربية ، بل علمنا أن وفودا من طلاب اليابان وعلمائها كانوا يزورون العاصمة البريطانية فيحرصون على زيارته ويحسبون رؤيته والتحدث اليه معلما من معالم الغرب لا تكمل الرحلة بغيرها ، والى وفد من هذه الوفود وجه نصيحته المشهورة بالتحذير من قدوة الدول المستعمرة فى السياسة والاجتماع .

وقد زاره الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده (سنة ١٩٠٣) فسمع منه مثل هذا الرأى ، وقال له بعد مساجلة فى حديث الدين : « ان الانجليز يرجعون القهقرى ؛ فهم الآن دون ما كانوا عليه قبل عشرين سنة » . وسألة الأستاذ الامام : « وفيم هذه القهقرى ؟ » قال سبنسر : « انهم يرجعون القهقرى فى الأخلاق والفضيلة ، وسببه تقدم الأفكار المادية التى أفسدت أخلاق اللاتين من قبلنا ثم سرت الينا عدواها » ..

وقد كتب الأستاذ الامام فى مذكرته بعد هذه الزيارة كلمة يقول فيها : « حار الفيلسوف فى أوربة وأظهر عجزه مع قوة العلم ، فأين الدواء ؟ الرجوع الى الدين » .

ومن الجائز أن يكون هذا الاعراض من الفيلسوف عن تيارات الأفكار فى الغرب سببا آخر من أسباب أعراض القوم عنه ، ولكنه

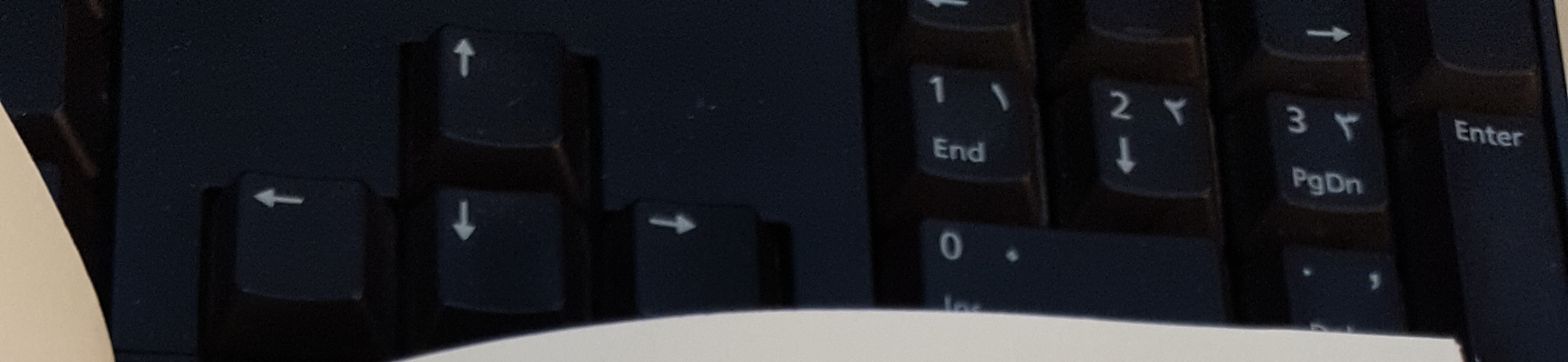

اعراض الى حين . لأن البوادر كلها تدل على سآمة الغرب لتلك المذاهب التى تتطـوح الى الشـــمال والى اليمين فى الدعـوة الى المادية أو الدكتاتورية ، ولا نتيجة لهذه السآمة غير العودة الى الاعتدال فى تقدير الحقوق الفردية : حقوق الشخصية الانسانية ، ومن علامات ذلك هذه الدعوات المتلاحقة الى فلسفة الوجودية التى تقوم كلها على الايمان بتبعة الفرد وبحقه فى دفع الطغيان من قبل الجماعات عليه ، ولولا أن الأخلاق أساس راسخ فى فلسفة سبنسر وليست بهذا الرسـوخ فى مذاهب الكثيرين من الوجوديين ، لكانت فلسفة سبنسر شعارا ناطقا لمعظم تلك الدعوات .

عباس محمود العقاد